بين التغير القيمي والتثاقف الاجتماعي
مقاربة مفاهيمية

أ/ عبد الحفيظ بولزرق
قسم علم الاجتماع ـ جامعة قسنطينة 2

الملخص:

تعد المفاهيم حقلا يزخر بالاقترابات المعرفية التي تعبر في الحقيقة عن تمازج معنوي–في المعنى– يمكن من خلاله فك شفرات المعرفة الإنسانية التي تتميز بالبناء وبالتكامل في أحيان أخرى كثيرة.

ونحن بصدد تحديد مفهوم التغير القيمي وجدنا أنه فعلا هناك مفاهيم مزاحمة له، نظرا لارتباط المفهوم العام بصياغة مركبة تجمع بين التغير والقيمة وكلا الاصطلاحين يعبران عن حقل تجتمع حوله جملة من المصطلحات والمفلهيم.

وفي سياق الاقتراب المفهومي جعلنا التفاعل وحدة مناقشة للمفهوم على اعتبار أن التغير يعبر عن الانتقال من حالة إلى حالة أخرى، لكن هذا التغير إذا ارتبط بالقيم فإنه يمس بالضرورة مفهوم الثقافة وهي كل مركب يعبر عن أجزاء منها القيم.

وهذا المقال هو محاولة لتوضيح الالتقاءات المفهومية من خلال الإجابة على التساؤل التالي: **هل يمكن أن نتكلم عن تغير قيمي من غير أن نتكلم عن عملية تثاقف اجتماعي قيمي؟**

الكلمات المفتاحية: التغير الاجتماعي – القيم – التثاقف

Résumé :

Les concepts sont un champ très riche en approches cognitives exprimant en réalité un brassage de diverses connaissances permettant le décodage de la connaissance humaine qui se caractérise par la construction et, souvent, par la complémentarité.

En tentant de déterminer le concept de changement des valeurs, nous avons relevé l’existence de concepts connexes, étant donné le lien du concept général avec une formulation complexe alliant changement et valeur, et chaque terme faisant référence à un champ autour duquel s’accumulent un certain nombre de termes et de concepts.

Dans le cadre de l’approche conceptuelle, nous avons considéré l’interaction comme unité de lecture, car le changement reflète la transition d'un état à un autre. Mais ce changement, s’il s’associe à des valeurs, il doit nécessairement toucher au concept de la culture, celle-ci étant entendue comme un tout complexe comprenant des parties, dont les valeurs.

Notre étude tente de mettre en évidence les collusions conceptuelles afin d’apporter une réponse à la question suivante :

Est-il possible de parler de changement de valeurs sans parler de processus d'acculturation sociale de valeurs?

Mots clés : changement social – les valeurs – l’acculturation

مقدمة

في هذا المقال سنحاول بحث عملية الربط بين مفهومين اختلط إدراكهما جيدا مما سبب عملية عدم الفصل في استعماليتهما وهما مفهوم الثقافة ومفهوم القيمة، لدرجة أن الكثير من الأدبيات لا تعير القضية أدنى حرص، مما دفع إلى فوضى المعارف والمفاهيم ، على الأقل على المستوى المعرفي والفلسفي والفكري الذي يمثل بيئة النشوء والتطور والإدراك.

فوجدنا من خلال تتبعنا للمفهوم ين خلطا عاما ، فهناك من يرى الثقافة أشمل ويحكم باحتوائها للقيم، وهناك من يرى أن القيم سبب ودافع أساسي لتشكيل الثقافات وحتى بناء المجتمع وهناك من يرى أن القيم خارجية والمجتمع لا ينتجها وفقط ما نسميه نحن قيما هو معنى فقط أطلقناه إنما المجتمع تحكمه ضوابط ومعايير مما يدفع أيضا للخلط بين مفهومي المعيار والقيمة.

ولهذا رأينا أن نبحث العلاقة بين القيمة والثقافة العامة من خلال التراث الفكري الذي تناول هذه الأخيرة متخذين وحدة نقاشنا عملية التفاعل ، ليصبح تساؤلنا الجوهري متعلقا بتبادل الثقافات وانتشارها والذي يدفعنا إلى حتمية التبدل والتغير في صور وأنماط المجتمع لذا نتساءل:

- **هل يمكن أن نتكلم عن تغير قيمي من غير أن نتكلم عن مثاقفة اجتماعية؟**
- **ما هي علاقة القيم أو التغير القيمي بالتغير الاجتماعي أو الثقافي على وجه الخصوص؟ هل هي علاقة أسبقية أم علاقة احتواء؟**

لبحث هذا التساؤل أمعنا النظر في التراث السوسيولوجي والفكري لنفهم جيدا القضية من خلال أبعادها النظرية والفلسفية التي خط فيها علماء الاجتماع والفلاسفة و الأنثروبولوجيون الكثير من الدراسات والمراجع.

ولقد اخترنا من باب أولى أن نحدد معاني الثقافة والتثاقف والقيمة وذلك ضمن بعض المدارس السوسيولوجية العامة بإيجاز، لنبحث بعد ذلك استخلاصا العلاقة بين القيم والتثاقف في إطار عملية التغير.

أولا : التصورات السوسيولوجية لكل من الثقافة والقيم:

1 – التصور النظري للثقافة:

تعتبر الثقافة مفهوما مهما في العلوم الاجتماعية، بل أن هناك من يعتبره ا أهم موضوع للعلوم الاجتماعية على الإطلاق، وهذا ما أشار إليه **مالينوفسكي**.

وينظر **أوغبرن** و**نيمكوف** إلى الحياة الاجتماعية بوصفها دراما إنسانية يؤدي أدوارها أربعة ممثلين أساسيين، وهم : الوراثة، البيئة الجغرافية، الحياة الاجتماعية والثقافة، ويعتقد أن الثقافة هي وحدها التي تلعب الدور الأساسي في الدراما الإنسانية.[1]

فالثقافة هي ركيزة أساسية في صياغة النظام الاجتماعي وتوجيهه ومحاولة الرفع من المعاني الفكرية والجمالية والذوقية للمجتمع وأشكاله الاجتماعية التي تعبر عن هويته الحضارية.

وفي الحقيقة يتفق علماء الاجتماع والأنثر وبولوجيا على أنه من الصعب إيجاد تعريف دقيق ومتفق عليه لمفهوم الثقافة، فقد قام **كروبر وكلوكهون** بفحص ما يزيد عن مئة وستين تعريفا صاغها علماء الأنثروبولوجيا للثقافة ولم يجدا من بينها تعريفا مقبولا.[2]

فيقصد بكلمة ثقافة في الأنثروبولوجيا مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها، ومن هذه الزاوية يكون للثقافة معنى أوسع في الأنثروبولوجيا مما هو عليه الحال في التاريخ أو الأدب، فقد يطلق على الرجل في لغة الحياة العامة وصف "مثقف" حين يستطيع أن يتحدث بلغات غير لغته الأصلية وحين يكون ملما بالتاريخ والآداب والفلسفة والفنون الجميلة.[3]

وورد تعريف الثقافة وفق **الطرح الماركسي** في الموسوعة الفلسفية على أنها : "كل القيم المادية والروحية – ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها– التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ"، وبمعنى أكثر تحديدا فإنه من المعتاد التمييز بين الثقافة المادية (أي الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج وغير ذلك كالثروة المادية)، والثقافة الروحية (أي المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية... إلخ) والثقافة ظاهرة تاريخية ويتحدد تطورها بتتابع النظم الاقتصادية والاجتماعية وتتخذ الثقافة في أي مجتمع طبقي طابعا طبقيا سواء فيما يتعلق بمضمونها الإيديولوجي أو أهدافها العميقة.[4]

كما ربطها "ماركس" بمفهوم الصراع، ذلك أن الصراع البشري الدائم والأولي إنما يعكس القوة المسيطرة على وسائل الإنتاج المختلفة، والتي تمتلك أيضا أنماط الموقف والفكر والإيديولوجي، وجميعها تعكس الصراع الثقافي بين الطبقات في المجتمعات عبر العصور التاريخية.

بينما طغت فكرة التنظيم والنموذج على التعريفات أو التن اولات التعريفية لمفهوم الثقافة بالنسبة **للمدرسة البنوية**، وذلك حسبما توفر لدينا من إسهامات: **دولارد** و**كوتو**و**جيلن** و**ريدفيلد**.

فعرفها **دولارد 1939** على أنها : "اسم يطلق على العادات المجردة (عن حامليها) والمرتبطة بعضها بعضا، لمجموعة اجتماعية".

وهي عند **ريدفيلد 1940:** تمثل "تنظيما من المفهومات التقليدية التي تظهر في الفعل والمصنوعات والتي تميز أي جماعة إنسانية من خلال استمرارها من خلال التقاليد".

وعند **جيلن 1945 GILLEN:** "تتكون الثقافة من عادات منمّطة ومرتبطة وظيفيا ومنتشرة بين مجموعات بعينها من البشر تكوِّن مجموعات اجتماعية معينة".

ويعتبرها **كوتو 1949:** أحد التكوينات الأكثر شمولا والتي يطلق عليها "مجالات التفاعل الاجتماعي" باعتبارها أسلوب حياة شعب بأسره مثل الشعب الصيني أو شعب غرب أوربا، أو الولايات المتحدة أن الثقافة بالنسبة لشعب من الشعوب هي كالشخصية بالنسبة للفرد، وروح الجماعة بالنسبة للثقافة هي كالأنا بالنسبة للشخصية أي أنها لب كل أنواع السلوك المحتملة.[5]

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نقول أن الخطوط الأساسية والعامة في التعاريف المعروضة تتمثل في:

- الثقافة إنسانية وميزة بشرية.
- الثقافة مادية وغير مادية (مادية وروحية على حد التعبير الماركسي).
- الثقافة ظاهرة تاريخية ومتطورة.
- الثقافة كيان مركب تنتظم مكوناته.

ويمكننا أن نُجمل ما جاء به السابقون في تعريفهم للثقافة فيما ذهب إليه "إدوارد تايلور"(1832–1917) لما وضع للثقافة تعريفا جامعا يدين الكل بالاعتراف به ، فيعتبر "**الثقافة أو الحضارة بمعناها الإناسي الأوسع ، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل ا لمعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع**".

هذا التعريف الواضح والبسيط يستدعي بعض التعليقات . فهو –كما نرى– تعريف وصفي وموضوعي وليس تعريفاً معيارياً؛ ومن جانب آخر، فهو يختلف عن التعاريف الأخرى الحصرية والفردانية للثقافة. فالثقافة حسب "**تايلور**" هي تعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان، وتتميز ببعدها الجماعي، والثقافة في نهاية الأمر مكتسبة، وبالتالي فهي لا تنشأ عن الوراثة البيولوجية.[6]

وبعيدا عن كثرة التناولات الأدبية، يمكن إجمال القول تأييدا لما ذهب إليه "**كيلي W.A.Kelly** " بأن الثقافة من الناحية البنائية تعتبر نسقا منطقيا ونموذجا قائما على التجريد . وبهذا نكون من خلال هذا العنصر قد تطرقنا لمفهوم الثقافة كمفهوم أول له أهمية بالغة في تحديد إشكالية ضبط المفهوم العام، وهو التغير.

2 – التصور النظري للقيم:

بعد أن عرجنا على مفهوم الثقافة والتناولات الأدبية والسوسيولوجية له على أساس تنوع في الطرح وتقارب في الهيكل العام للفهم، نهتم في هذه الجزئية بمفهوم القيمة التي تعد أهم المكونات التي تحدد السلوك الإنساني وتوجهه على اعتبار أن الحياة الإنسانية في تفاعلها تعبر عن تناقح وتبادل للقيم والمعايير.

فما هي القيمة؟ وما هي أهم المعالجات السوسيولوجية لمفهوم القيمة؟

يعتبر مفهوم القيمة من المفاهيم التي حظيت بالكثير من المساهمات على اختلاف الحقول المعرفية في تحديد مدلوله، ذلك انه مفهوم مشترك وله استخدامية واسعة خاصة في العلوم الاجتماعية والسلوكية كعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم النفس العام والاجتماعي، فجمع المدلول بين الطرح الفلسفي المجرد وبين الطرح المادي وفي هذا المعنى علق "**ريمون رويه**" قائلا: "لعل المرء لا يعجب من تشتت المؤلفات التي تبحث موضوع القيمة بحثا قاصدا، إذا فطن على أن نظرية القيم لم تنبثق عن جهد فيلسوف واحد، وإنما تضافرت في صنعها طائفة من العقول الممتازة التي عملت بصورة متفرقة مبعثرة".[7]

يعرف "محمد عبد الغاني" القيم بأنها "مجموعة من الاعتقادات المؤكدة والتي تمثل دستورا بالنسبة للفرد، حيث يؤمن بها وتحدد منها شرعية أفعاله وسلوكه".[8]

فالقيم هنا عبارة عن اعتقادات وهذا يعني أنها تنبع عن قناعة، فهي توجه السلوك والفعل وتحدد له ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله وهو هنا يحصر دورها بالنسبة للفرد فقط.

ويمكن اعتبار القيم مجموعة الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات أو الأشياء، وذلك في ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو الأشياء، بحيث تتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد - بمعارفه وخبراته - في ظل الإطار الحضاري الذي يعيش

فيه، ويكتسب خبرات ومعارف وأنماط سلوكية وعادات وتقاليد في مضمونها بوضع معايير للسلوك الإنساني، وعلى الفرد أن يتبعها وأن يلتزم بها وأن يكيف سلوكه وفقا لها ومنه فالقيم مجموعة أحكام قيمية بمعنى أن الفرد يعبر عن رأيه في الأشياء بما تتركه في نفسه من أثر وإحساس وهي ضوابط للسلوك يجب الالتزام بها، وتتفق مع التعريف السابق في اعتبار أن القيم تكتسب بالتربية وذلك بتحديد ما يجب فعله وما لا يجب فعله، ثم يسعى الفرد لتحقيقها ذاتيا، وهي هنا تركز على القيم الفردية.

ويعرف "محمد زقزوق" القيم بأنها "معايير للسلوك الإنساني، والمجتمع المتوازن هو ذلك المجتمع الذي ينتشر فيه الوعي بالقيم، ومن ثم الالتزام بها ويرتبط بازدياد الوعي بالقيم والإحساس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط".[9]

يتفق هذا التعريف مع التعريف السابق في اعتبار أن القيم معايير للحكم على الأشياء وبيان الحسن والقبيح منها، كما يبين التعريف أهمية القيم بالنسبة للفرد والمجتمع وما تحققه من ترابط وتقدم.

ومنه نفهم من التعاريف السابقة أن القيمة تنشأ من الإحساس بالرغبة والهدف وهذا في حقيقته يعبر عن الجوهر الفلسفي للفكرة و "**النظرية العامة للقيمة** " لصاحبها الباحث "**بيري Ralf.Barton Perry**"[10]، "وهذه النظرية تتخذ مفهوم (الاهتمام) محورا وركيزة لتفسير القيمة، وخلاصة هذه النظرية أن أي اهتمام بأي شيء يجعل هذا الشيء ذا قيمة".[11]

من خلال هذه التعريفات يمكن أن نقول بأنهم يعتبرون القيم:

أ -أحكاما معيارية توجه السلوك الإنساني.

ب -تفضيلات أساسية لما هو مرغوب فيه.

ج -ضرورية في حياة الفرد والجماعة.

د -والبعض ينظر إليها على أنها أحكام واقعية والبعض ينظر إليها على أنها أحكام ذوقية.

واستنادا إلى الاعتبارات السابقة يمكن تعريف القيم إجرائيا بأنها: "**ضوابط للسلوك الإنساني توجهه إلى ما هو مرغوب فيه وما هو مرغوب عنه، تهدف إلى تنمية المجتمع وتماسكه، وبناء شخصية الفرد حتى يصبح عضوا فاعلا داخل المجتمع**".

وبالنظر إلى جملة التناولات السوسيولوجية لمفهوم القيم تشير دراسة "**حميد خروف**"[12] والتي عرض فيها مفهوم القيم ضمن المدارس السوسيولوجية المختلفة ضاربا بذلك أمثلة عن المدرسة الفرنسية والانجليزية والأمريكية ثم تناول المفهوم في عدة طروحات، اخترنا منها : الطرحين الوظيفي والماركسي لنخلص إلى موضوع القيم في الطرح الثقافي.

فللقيم وفق أصحاب المنظور الاجتماعي –بحكم منهجهم العلمي– مضطرون إلى دراسة القيم كما تبدو في مجتمع بشري يرتبط بمكان معين وزمن محدد، ويخضع لظروف بعينها، وبالتالي فإن القيم تتطور –في نظرهم– بتطور المجتمع الذي توجد فيه.

فالمدرسة الفرنسية وعلى رأسها "**إيميل دوركهايم**" الذي حدد مكونات الظاهرة الاجتماعية بأنها نظم اجتماعية لها صفة الضغط والإ لزام، كما أنها تتكون من الرموز الاجتماعية والقيم والأفكار والمثل، وتأكيده كذلك على مفهوم الضمير الجمعي في تحديد الضبط داخل المجتمع.

حيث أنه ا ختار القيمة كمكون بارز أولا ، ثم تحدث عن الضبط الاجتماعي والضغط والإلزام كآليات توحي بالمعاني القيمية وهي معالجة غير المرغوب فيه.

في حين يتجلى رأي **المدرسة الانجليزية** فيما ذهب إليه «**هربرت سبنسر** » صاحب النظرية العضوية التي ترتبط بتغيرات ساهمت في ظهور النظرية التطورية التي تؤمن بالتوقعات التي تحددها وتوجهها جملة من الأنساق القيمية التي تسود المجتمع.

بينما يعبر عن وجهة نظر **المدرسة الأمريكية** كل من «**سوروكين**» و«**تالكوت بارسونز**»، إذ حاول الأول منهما الوصول إلى تعميم ات عن التغير الاجتماعي والثقافي من خلال تاريخ الإنسانية كمؤشر محدد للقيم، أما التفاعل فيعبر عنه على أساس أنه ظاهرة اجتماعية ثقافية تتكون من ثلاث عناصر:

- الشخصية كفاعل.
- المجتمع باعتباره المجموع الكلي للمتفاعلين.
- الثقافة وهي المجموع الكلي للمعاني والقيم وال معايير الناشئة عن الشخصيات المتفاعلة.

وبالتالي نبحث عن القيم من خلال تتبع الأشكال الثقافية.

أما «**تالكوت بارسونز** » فنلاحظ في نظريته عن الفعل الاجتماعي تأكيده على أن المُوجِّهات الدافعية أو القيمية هي إحدى أركان الفعل الاجتماعي ، ومن ثم تتحقق القيم في أدوار وموجهات ومواقف، وهو ما يتضمنه الإطار المرجعي للفعل.

وأما عن ارتباط المفهوم بأهم المداخل السوسيولوجية الكبرى فنجد:

- **في الطرح الماركسي:** أن القيم حقائق واقعية توجد في إطار اجتماعي واقتصادي حيث البناء الاقتصادي للمجتمع هو المصدر الرئيسي للقيم ، لأن هذه الأخيرة تتشكل وتتطور بتطور النسق الاقتصادي وذلك لوجود رابطة وطيدة وتأثيرات تبادلية بين البناء التحتي والبناء الفوقي.

- **وأما وظيفيا:** ومن خلال التصور العضوي للمجتمع، هادفا إلى الكشف عن كيفية إسهام أجزاء النسق في تحقيق تكامل النسق ككل لاستمراريته أو للإضرار بهذه الاستمرارية، غير أن تكامل الأجزاء لا يتم دائما على نحو مثالي مما يدعو إلى تكيُّف هذه الأجزاء مع المؤشرات الداخلية والخارجية وضرورة توفير أساليب الضبط لإعادة التوازن، وتعتبر القيم كنسق فرعي وجزء من النسق العام وهو المجتمع وهي في الطرح **الدوركايمي** ليست إلا تعبيرا عن رغبات الأفراد في إرضاء المجتمع الذي ينتمون إليه، لأنه لا يمكن أن نتصور كائنا متوحدا إلا بلغة المجاز، ذلك أن الضمير الفر دي يعكس بيئة الجماعة التي ينتمي إليها وفيه تلتقي تعاليمنا، لأن القيم الأخلاقية التي يؤمن بها الفرد ويرعاها في سلوكه إنما تحدد بعض الأحوال الثابتة في الفكر الجمعي، فتعين الخير والشر تبعا لطبيعة المجتمع الراهن وهذه القيم تتغير لكون أن طبيعة الظواهر الاجتماعي ة هي الأخرى في تغير مستمر.

ومنه لا يتماسك النسق العام إلا بتناسق أجزائه، وهنا تتجلى أهمية القيم كنسق فرعي يؤدي وظيفة تساندية وتضامنية تضمن استقرار النسق وبقاءه.

ثانيا: اقترابات مفاهيمية: القيم الثقافية، التثاقف والتغير:

1 - القيم الثقافية والتثاقف:

أورد "**محمد السويدي**" تعريفا للقيم الثقافية[13] معتبرا إياها: "العناصر الثقافية التي تجعل الثقافات الأخرى عسيرة الفهم على الإنسان، أو هي موضوع الرغبة الإنسانية والتقدير، ولذلك تشمل القيم الثقافية كل الموضوعات والظروف والمبادئ التي أصبحت ذات معنى خلال تجربة الإنسان الطويلة".

وقد تكون القيم إيجابية أو سلبية، وأساس هذا التمييز يقوم على ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب؛ أي أن القيم الثقافية الإيجابية هي قيم مرغوبة، والقيم الثقافية السلبية هي قيم غير مرغوبة. ومثال ذلك أن الزهور قد تكون لها قيمة إيجابية في ثقافة، بينما لا تكون كذلك في ثقافة أخرى.

ولهذا كانت القيم الثقافية في الأساس ذات طبيعة نفسية، لأنها تعبر عن الأفكار المتعلقة بالأهمية النسبية للأشياء، كما أن اتجاه الفرد هو ميله بطريقة معينة تجاه أحد القيم.

ويقوم نسق القيم في الثقافة الواحدة بعدد من الوظائف، من أهمها:

1. ربط أجزاء الثقافة بعضها بالبعض الآخر، فتربط العناصر المتعددة والنظم حتى تبدو متناسقة فيما بينها.

2. تزود أعضاء المجتمع بمعنى الحياة، وبالهدف الذي يجمعهم من أجل البقاء.

وأشار "**أحمد الخشاب**" معلقا على القيم الثقافية قائلا: "لو كانت المعايير مبنية على ما يجب أن يكون أ و على مثل أعلى مطلق، لاتفقت كل الشعوب، وكل المجتمعات في كل الأزمان والظروف والمواقف على قيم واحدة موحدة . ولكن الواقع هو أن لكل مجتمع قيمه ومعاييره التي تتوقف على ظروفه وأحواله ".[14] وهو بهذا يُقِرُّ التعدد الثقافي بربطه بالاختلاف في التوجهات والمعايير كما يرمِ تعبيره عن الاعتراف بالخصوصية الثقافية لكل مجتمع.

ويقودنا هذا الكلام إلى التطرق إلى مفاهيم أخرى لابد وأن تحضر إذا ما أردنا الحديث عن الثقافة وخصوصية المجتمعات والتغير الثقافي والاجتماعي ومنه القيمي، ذلك أن التغير عملية دينامية تحتضن تبدُّلا وانتقالا لمفاهيم وإدراكات وتغير في المعايير والتوجهات والاعتقادات.

لهذا ينبغي التعريج على مفهوم مهم جدا وهو مفهوم التثاقف أو المثاقفة ، ولغويا هو على وزن تفاعل، و التفاعل مع الأمر تبادل للتأثر والتأثير ، وبالفعل يعبِّر مفهوم التثاقف ع ن معنى تبادل الثقافة والتثاقف ، وبتعبيٍ نفسي وفلسفي نقول عنه أنه "**العلاقة التي تجمع بين ثقافة الأنا وثقافة الأنا الذي ليس أنا**"، لأنه ليست هناك ثقافة واحدة نموذجية لأن مسألة تنميط وتكييف ثقافة الإنسان أمر مرفوض نظريا ، ولكن العمل على ذلك يظل مستمرا في جدل بين المؤثر ومستقبل التأثير خاصة في ظل العولمة الثقافية أو نمذجة الثقافة.

فالتثاقف (acculturation) عمليّة تتمّ في الحركة بين الانفتاح على الآخر وبين العودة إلى الذات. وهي حركة ثقافيّة طبيعيّة تقود إلى السمو بكلّ ما هو إنسانيّ عامّ واختياره ، وطرح كلّ ما هو محلّي أو ظرفيّ في الثقافات . فليس من علاقة على الصعيد الإنسانيّ إلاّ ومن شأنها التأثير المتبادل.

لذا نجد الكثير من العلماء والباحثين يصطلحون أيضا على التثاقف بمصطلح التكيف الثقافي أو تبادل التثقيف.

ويعرف «**أورتيز**» تبادل التثقيف كما أورد ذلك "**محمد السويدي**" في كتابه "**مفاهيم علم الاجتماع الثقافي**" بأنه "**عملية تتم من الخارج**"، ويقول في هذا الشأن : "إن كلمة (تبادل التثقف) تعبر بشكل أفضل عن المراحل المختلفة لعملية التحول من ثقافة إلى أخرى، لأن ذلك لا يتمثل في مجرد اكتساب ثقافة أخرى، وهو ما تعنيه فعلا الكلمة الانجليزية **(Acculturation)** أي التثقف من الخارج، ولكن العملية تتضمن أيضا بالضرورة فقدان أو استئصال ثقافة سابقة، وهو ما يمكن وصفه بـ: "**التفكك الثقافي**"، وهي تتضمن علاوة على هذا فكرة خلق ظواهر ثقافية جديدة بعد ذلك، وهو ما يمكن تسميته "التثقف المحدث"[15].

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن التثاقف هو العملية التي يستطيع الفرد أو الجماعة عن طريقها اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال الاتصال أو التفاعل بينهما . غير أن التثاقف بالنسبة للفرد هو عملية تعلم اجتماعي أشبه بعملية التنشئة الاجتماعية التي تلعب فيها اللغة دوراً جوهرياً.

أما بالنسبة للمجتمع فالتثاقف هو ع ملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى مع تعرضها لعملية التبدل التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها . غير أن هذه المقاييس والقيم والأحكام التي دخلت إلى هذه المجتمعات غالباً ما تسبب لها ظاهرة الصراع الحضار ي أي الصراع بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة.

وعليه يمكننا ان ندرك جليا أن عملية التثقف أو التثاقف تحمل معاني التبدل الثقافي والتغير القيمي مما يخلق إشكالية التواؤم والانسجام وهذا الطرح يجعلنا نمنح الصفة الوظيفية والعضوية لمفهوم القيمة كمؤشر حقيقي لعملية التغير وفي هذا المعنى يعبر الباحث الشهير"**المهدي المنجرة**" في كتابه القيم "**قيمة القيم**" يقول: "ومن المهم أن ندرك وجود منظومة من القيم المتميزة بالتعدد والمرونة والخاضعة لما لا يسهل حصره من الضغوط الدافعة للتغير".[16]

وعليه لا يمكننا بـأي حال تجاهل مفهوم آخر مقا رب وهو التغير الثقافي وكذلك علاقته بالتغير الاجتماعي وأيهما أوسع وأشمل . وهي إشكالية مفاهيمية أخرى قد تنأى عن جوهر الموضوع، ولكن لا يمكن أن نتكلم عن تغير في القيم ونحن نجهل الإطار العام للتغير.

2-التغير الثقافي والتغير الاجتماعي:

التغير الثقافي هو أي تغير يطرأ على جانب معين من جوانب الثقافة المادية أو اللامادية، سواء عن طريق الإضافة أو الحذف، أو تعديل السمات، أو المركبات الثقافية، ويمكن أن يحدث التغير الثقافي نتيجة لعوامل متعددة ولكنه في الغالب يحدث بفعل الاتصال بثقافات أخرى، أو التجديدات أو الاختراعات التي تدخل ثقافة معينة.

يطلق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا خاصية (التغير) على الثقافة، إذ من النادر أن يكبر الإنسان ليجد نفسه في نفس الثقافة التي كانت سائدة في الوقت الذي ولد فيه، أما القول بوجود ثقافات "راكدة" أو "جامدة" فهو أمر لا تقره الملاحظة والمشاهدة للمجتمعات المختلفة.

فالتغير في ثقافة الإنسان عملية مستمرة، خاصة مع التطور العظيم الحاصل في الماديات من تكنولوجيا وأدوات وحتى تقنية ومواصلات مما أدى إلى التحول السريع على شتى الأنظمة

والمستويات مما يدل على أن النقلة النوعية في الأحوال ومن مكان لآخر هي العامل الأساسي في التغير الثقافي وبالتالي في التغير الاجتماعي.

فللثقافة خصائص كثيرة، من بينها قابليتها للنقل، فعن طريق انتقال الثقافة من جيل إلى جيل أصبح في مقدور كل جيل لاحق أن يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق له . وبذلك تميز المجتمع الإنساني بميزة فريدة، ألا وهي تراكم ثقافته. فإذا ما استجد عنصر ثقافي كالراديو مثلا لا يلبث هذا العنصر أن يندفع في النسيج المكون للثقافة، وفي بعض الأحيان ينبت في هذا النسيج، وفي بعض الأحيان قد يختفي كما اختفى التحنيط في المجتمع الحديث.[17]

ولأن المجتمع ينتفي في ظل الفرقة، فإن تآلف الأفراد مجتمعيا وتثاقفيا شرط لقيام المجتمع المتماسك المتبادل للثقافات داخليا بشكل يحافظ على دوامه، وأي تغير ثقافي من شأنه أن يمس أي نسق فرعي ولكن من غير أن يؤثر على وجود النسق العام الكلي (المجتمع).

واعتبر الكثير من علماء الاجتماع أن التغير الثقافي يشمل التغير الاجتماعي، أين استخدم أصحاب المدرسة الأنجلوساكسونية تعبير "**التغير الاجتماعي**" وذلك للدلالة على ظاهرة التحول والنمو والتكامل والتكيف والملاءمة، وهي العمليات التي يتعرض لها كل نسق ثقافي.

ويقول "**كينجزلي ديفيز** " أن التغير الاجتماعي هو التحول الذي يطرأ على التنظيم الاجتماعي، سواء في تركيبه وبنائه، أو في وظائفه . وهذا يعني أن التغير الاجتماعي جزء من التغير الثقافي، الذي هو أشمل وأوسع نطاقا، إذ يتناول كل التغيرات التي تحدث في أي فرع من فروع الثقافة بما في ذلك الفنون والعلوم والفلسفة والتقنيات، كما يشمل صور وقوانين التغير الاجتماعي نفسه، ومن ثم فلا بد أن تتم دراسة التغير الثقافي في النطاق الذي ينبع فيه ذلك التغير من التنظيم الاجتماعي، أو يؤثر فيه.[18]

بعد هاته الاقترابات النظرية والمفهومية لكلمة الثقافة والقيم نجد أنفسنا عند مفصل الدراسة عندما تعتبر مفهوم القيمة كمؤشر وكعلامة عن تغير ثقافي في إطار الاتجاه الثقافي كمدخل نظري يعكس التناول الأنثروبولوجي للمواضيع، والتي على رأسها الثقافة ومكوناتها.

ثالثا: التغير القيمي والمثاقفة الاجتماعية:

عرفنا مما سبق أن التثاقف هو عملية تبادل للثقافات المتنوعة، مما يعكس حالة التفاعل بين أجزاء النسق العام بمختلف مكوناته ، والتي مهما تنوعت تعتبر مركبات لكيان نظري عام اسمه "الثقافة المجتمعية".

ويعبر أصحاب الاتجاه الثقافي عن الإطار الاجتماعي للقيم، بالنظر إلى نمط السلوك والثقافة، انطلاقا من أن العوامل الاجتماعية والثقافية لها أثرها الواضح في إكساب القيم وصدور

الأحكام القيمية، وفي هذا المعنى يؤكد "**سانيال (Sanial)**" على أن الثقافة هي عملية تحقيق القيم. فالقيمة هي علاقة قائمة بين الذات والموضوع، ذلك أن الذات تنجذب بدافع القيمة نحو موضوع معين بقصد إيجاد عملية تكييف وتوازن، فهي عملية ثقافية دون ريب ، ومن ثم كانت الثقافة هي محاولة دائبة لتحقيق القيم.[19]

فتغير القيم يعد أحد أهم أنواع التغير لأنها المحدد والموجه ويعلق "**عاطف غيث**" على ذلك قائلا: "يؤدي تغير القيم إلى حدوث تغيرات كبيرة في المجتمع، و إن كانت عملية التغير في النسق القيمي تعد نوعا من التغير البطيء جدا، إذا رجعنا إلى تصورات (**وليم أوغبرن**) عندما يشير إلى العناصر اللامادية الثقافية وبطء التغير في عناصرها وجوانبها المختلفة، وهذا بخلاف العناصر المادية التكنولوجية: ويترتب عن تغير القيم تغيُّرُ مجموعة أنماط التفاعل والعلاقات والمراكز والأدوار الاجتماعية.[20]

استنتاجات وتعقيبات:

من خلال ما سبق التعرض له من اقترابات نظرية ومفهومية يمكننا القول أن المقال جاء ليحدد معالم فكرة تضطلع بكنه التغير الذي يجعل من التفاعل وحدة تحليل له، ولكون التغير يمس عدة اعتبارات فإن مفهوم "**القيمة**" معني أيضا بالتغير وفق نظرية المؤ ثر ومستقبل التأثير (المتأثر).

وخلاصة القول: أنه لا يمكن أبدا أن يحدث تباين أو انتقال أو حتى تغير على مستوى التوجهات والمعتقدات القيمية ، إلا إذا كان هناك تغير على مستو ى البناءات والسلوكات الاجتماعية؛ أو بمعنى آخر إلا إذا كانت هناك طفرة ثقافية على المستويين المادي والمعنوي، على اعتبار أن التغير القيمي بالتعبير الرياضي العلمي هو عنصر محتوى في مجموعة أو دائرة أوسع، هي التغير الثقافي الذي يضم بمعناه الواسع التغير الاجتماعي.

وعلى قدر النسبية التي تنسب للقيمة فإن التغير يجعل من القيم مادة من عالم المتغيرات لا يمكن بأي حال الحكم على ثباتها، ذلك أن المجتمع يعبر عن حالة الأنومي Anomie فيه لمَّا تختل المعايير والقيم مما يدل صراحة على أن التغير لا محالة يمس القيم والتوجهات والمعايير.

ومنه فالعلاقة بين التغير الثقافي الذي تحدده المثاقفة الاجتماعية والثقافية يحتوي بداخله قيما تتغير وعمليات دائبة الانتقالية.

مما يجعلنا نجزم أنه : <u>لا يمكننا أن نتكلم عن تغير قيمي إلا من خلال التطرق للتغير الثقافي بكافة أبعاده.</u>

الهوامش:

[1]– الساعاتي، سامية حسن: الثقافة والشخصية، بيروت، دار النهضة العربية، ط2، 1983، ص ص 28-29

[2] – السويدي، محمد: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1991، ص 44

[3]– المرجع نفسه، ص 40

[4] – الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين بإشراف روزنتال ويودين : ترجمة : سمير كرم، دار الطليعة ، 1974 ، ص ص 139-140

[5] – الساعاتي، سامية: مرجع سابق، ص ص 47-48

[6] – كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: قاسم المقداد، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2002، ص 22

[7]– خروف، حميد: " القيم من منظور اجتماعي مقاربة نظرية «، مجلة العلوم الانسانية، العدد 20، ديسمبر 2003، قسنطينة، ص 70

[8]– محمد عبد الغاني حسن: مهارات إدارة السلوك الإنساني متطلبات التحديث المستمر للسلوك، مركز. تطوير الأداء والتنمية، مصر الجديدة، 2005، ط 2، 2005، ص 89

[9]– زقزوق، محمد حمدي: الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، 2003، ص 143

[10]– ولد بري عام 1876 م وتوفي 1957 وقد مارس التدريس في جامعة هارفارد من 1902- 1946 وله عدة مؤلفات قيمة في ميداني الأخلاق والفلسفة الاجتماعية، ومن المرجح أن تكون النظرية العامة للقيمة أحسن ما عرف من مؤلفاته الكثيرة .

[11]– حسن، حسين الحاج: علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط 1، 1983، ص 192

[12]– خروف، حميد: مرجع سابق، ص ص 69-85

[13]– السويدي، محمد: مرجع سابق، ص 245

[14]– حسن، حسين الحاج: مرجع سابق، ص 207

[15]– السويدي، محمد: مرجع سابق، ص 219

[16]– المنجرة، المهدي: قيمة القيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2008، ص 40

[17]– حسن، حسن الحاج: مرجع سابق، ص 244

[18]– السويدي، محمد: مرجع سابق، ص 109

[19]– خروف، حميد: مرجع سابق، ص 79

[20]– غيث، عاطف: علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص 322.

ـ بين التغير القيمي والتثاقف الاجتماعي ـــــــ